المشهد العمراني في القدس خلال العهد العثماني

إبراهيم عبد الكريم *

لا تزال مدينة القدس تحفل بعدد كبير من الآثار والمعالم التي تعكس الروح العربية – الإسلامية لهذه المدينة على الرغم من الأشواط المديدة التي قطعتها عملية تهويد القدس، لا يزال يقاومها ما ينوف على 300 معلم أثري تنتمي إلى الحضارتين العربية والإسلامية – في صدارتها الحرم القدسي الشريف – منها: 46 مدرسة تاريخية – 39 زاوية وضريحاً وتربة – 25 مسجداً – 22 سبيلاً وحماماً – 35 قبة ومحراباً وباباً – 34 طريقاً قديمة وأثرية – 18 طريقاً مقدسة عند المسيحيين – 19 كنيسة وبطريركية – 9 أسواق قديمة – 8 أبواب – عدد كبير من القباب والتكايا والخانقاهات والأربطة والمقابر الجماعية (التي تضم 9 قبور للصحابة وعشرات القبور للمجاهدين والعلماء والقادة والأعيان... إلخ).

أولاً: منزلة القدس في العهد العثماني

على غرار العهود الإسلامية المتعاقبة، ظل الارتباط بالقدس يشكل أحد المضامين التعبدية في حياة المسلمين خلال العهد العثماني، استناداً إلى نصوص واردة في الكتب والنصوص المقدسة، التي تحفل بالقوة الروحية لهذه العلاقة. وكان هذا الارتباط بالقدس محركاً روحياً ووجدانياً لسلوك السلاطين والولاة والأمراء والقضاة ورجالات الدولة المهمين وسواهم، معبراً عنه بالحفاظ على المعالم القائمة وبناء منشآت جديدة في هذه المدينة. وحظيت القدس آنذاك باهتمام فائق، لم يقتصر على بناء كمّ كبير من المعالم المعمارية، بل تعداه إلى العناية بالدور الحضاري والثقافي الذي كانت تؤديه هذه المعالم في حياة أهل القدس والعرب والمسلمين عامة.

ومع أن الأيوبيين هم الذين استردوا المدينة المقدسة (من الصليبيين) على يد الناصر صلاح الدين (583هـ/1187م)، وأن المماليك من بعدهم (658 – 922هـ/ 1260 – 1516م) شيدوا الكثير من المباني الدينية، إلى جانب إعادة بناء وترميم مكاني العبادة المركزيين، وهما المسجد الأقصى وقبة الصخرة، وساهموا بذلك في صبغ المدينة بالطابع الإسلامي، إلا إن القدس بعد أربع سنوات من الحكم العثماني في فلسطين – في زمن السلطان سليم الأول – خضعت للمرة الأولى إلى برنامج تطوير منتظم وشامل في زمن السلطان سليمان الأول/ القانوني (الذي تولى الحكم في الفترة 926 – 974هـ/ 1520-1566م). وتمكن من إعادة تثبيت مكانة المدينة بصورة نهائية كمركز يشد المسلمون إليه رحالهم، وبذلك كان السلطان سليمان مجدد المدينة وراعي نهضتها ومرسي قواعد ازدهارها.

حول اهتمام السلطان سليمان بالقدس، قدّم لنا الرحالة التركي أوليا جلبي – في مخطوطة (أوليا جلبي سياحة نامة) - ضمن وصفه لزيارة قام بها إلى القدس في رمضان (1080هـ - 1670م) الشرح الآتي: في عام 926هـ / 1520م اعتلى السلطان سليمان العرش، وعندما غدا ملكاً مستقلاً ظهر له النبي (صلى الله عليه وسلم) في ليلة مباركة وقال له: يا سليمان ستحقق انتصارات عدة، ويجب عليك أن تنفق الغنائم على تزيين مكة والمدينة خلال حكم خلفائك. وعليك أيضاً أن تزين حرمها بحوض للمياه، وأن تمنح دراويشها مخصصات مالية كل عام. وعليك أيضاً أن تزين صخرة الله وأن تعيد بناء مدينة القدس. ويضيف الرحالة جلبي: لما كان ذلك أمراً من الرسول، فقد نهض سليمان خان في الحال من نومه، وأرسل صرّة إلى المدينة وأخرى إلى القدس. وبالإضافة إلى المواد اللازمة أرسل كبير مهندسيه خوجا سنان (ت 699هـ/ 1588م) إلى القدس، ونقل مصطفى باشا إلى ولاية الشام. ولما صدر الأمر لمصطفى باشا بترميم القدس، جمع البنائين كافة والمهندسين والنحاتين في القاهرة ودمشق وحلب وأرسلهم إلى القدس لإعادة بنائها وزخرفة الصخرة المشرفة.

ربما يصعب علينا التحقق تاريخياً من صحة تفاصيل هذا السرد حول عناية السلطان سليمان الأول بتعمير مدينة القدس، لكن من الواضح أنه يسلط الأضواء ليس فقط على الدوافع الإجمالية التي يمكن تقصيها من خلال المباني التي ما زالت قائمة في المدنية، بل يقدم أيضاً أدلة واضحة تبين الدوافع التي كانت تكمن وراء كل إجراءات البناء على حدة. ولنلحظ هنا أن عمليات البناء استمرت في القدس على امتداد القرون الأربعة للعهد العثماني. ولما كان من المعتذر، في هذا المقام، تقديم عرض تفصيلي للتراث المعماري والثقافي الذي خلفه العثمانيون في القدس، فإن ثمة عينات لا تزال ماثلة للعيان تسمح بتكوين مشهد إجمالي لهذا التراث.

ثانياً: تجديد سور القدس وأبوابها

تبين المراجع التاريخية أن اليبوسيين (2500ق م) هم الذين بنوا الصيغة الأولى لسور القدس، وأنه طرأت عليه تعديلات وعمليات ترميم في الفترات المتعاقبة، منها التجديد الذي تم في زمن القائد الأيوبي الناصر صلاح الدين يوسف بعد استرداد القدس (583هـ/ 1187م). ولكن هذا السور تعرض للخراب بعد أكثر من 30 عاماً (615هـ/1219م) بفعل تعرض المدنية لخطر حصار صليبي، ودمر مرة أخرى (624هـ/1227م) وبسبب ذلك تمكن فريدريك الثاني من استلام المدنية المقدسة (626هـ/1229م) من دون أي مقاومة تقريباً. ثم بقيت القدس لأكثر من ثلاثة قرون تالية تفتقر إلى نظام دفاعي فاعل، إلى أن جاء العهد العثماني.

من المهم الإشارة هنا إلى سور القدس، الذي يحيط بالمدنية القديمة من جهاتها الأربع، القائم اليوم، هو من تجديد استغرق خمس سنوات (اعتباراً من 943هـ/ 1536م) في فترة حكم السلطان العثماني سليمان الأول/ القانوني، وبإشراف مباشر من معتمده المهندس

خوجا سنان. ولا يزال اسم السلطان سليمان منقوشاً عليه. وكان هذا التجديد فوق أساسات البناء المتهدم التي بقيت من العهد الأيوبي، وذلك بعد الفراغ من مشروع تزويد المدينة بالمياه.

جعل للسور آنذاك 34 برجاً (للحراسة والحماية بنيت – بمصطلحات اليوم – لاعتبارات طوبوغرافية واستراتيجية وأمنية) و344 فتحة رمي، وفي أعالي أبراج بوابات السور بنيت 17حجرة لأغراض قتالية. ولا تقدم الدراسات الأثرية تحديداً قاطعاً لمدى العلاقة بين الأبراج العثمانية والأبراج الأقدم منها، حيث جرى في حالات عدة إصلاح الأجزاء العلوية منها. ولكن على وجه العموم تبدو غالبيتها الساحقة على الطراز العثماني الذي يتميز بالطبيعة المتماثلة لمواد البناء والوحدات الهندسية.

يمكن تحديد خطوات بناء السور بناء على النقوش الثلاثة عشر المعروفة بالتسلسل الآتي: بدأ البناء في الجناح الشمالي الغربي بحسب ما تشير ثلاثة نقوش مكتوبة على باب العمود والبرج الأوسط وبرج اللقلق (في الزاوية الشمالية الشرقية)، والتي تؤرخ البناء في عام 944هـ/ 1537م. ويتكون هذا البرج من طابقين يتصلان بالسور، تشاهد في الأول ميزات حربية، منها مزاغل لرمي السهام، وفي الثاني تحصينات للمراقبة والحماية. وفي هذه المرحلة الأولى تم أيضاً تجديد باب الساهرة. وفي العام التالي تواصل البناء في الجهة الشرقية، حيث يشير نقش باب الأسباط إلى عام 945هـ/ 1538م، واستمر حتى الزاوية الشمالية الشرقية لساحة الحرم، إضافة إلى الجزء الشمالي من سور المدينة الغربي الممتد حتى القلعة، وتشهد على ذلك أربعة نقوش مؤرخة في عام 945هـ/ 1538م على البرج الشمالي والبرج الجنوبي واثنان على باب الخليل. وتم الفراغ من بناء السور مع إنهاء الجزء الجنوبي (عام 947هـ/ 1540م) كما تشير إلى ذلك أربعة نقوش كتابية أخرى، يقع اثنان منها على باب النبي داوود وواحد على برج الكبريت الواقع عند الزاوية الجنوبية الشرقية، وواحد على باب المغاربة.

ارتكز النظام الدفاعي في سور المدينة على نماذج أيوبية ومملوكية، تتمثل في بناء أبراج عند الزوايا وبوابات ذات مداخل متعرجة.

ويمكن مقارنتها على سبيل المثال بسور مدينة دمشق وبدرجة أكبر بسور مدينة حلب. وكذلك فإن الأقبية المنثنية في باب العمود وباب الأسباط وباب الخليل تشابه مثيلاتها في أبواب حلب والقاهرة التي بنيت في أواخر العهد المملوكي، الأمر الذي يؤكد رواية الرحالة أوليا جلبي في أن الذين قاموا بتنفيذ أعمال البناء كانوا شاميين ومصريين.

تم تطبيق أنظمة البناء الدفاعية المتبعة في العصور الوسطى، ومراعاة إعادة بناء سور على الهيئة التي كان عليها في العهد الأيوبي. ومع أن النقوش قليلة العدد الموجودة على سور المدينة لا تزودنا بمعلومات حول تنظيم عمليات البناء، لكن يمكننا الافتراض أن محمد بك حاكم لواء غزة والقدس – الذي بنى محراباً تحت قبة النبي في الحرم القدسي (مؤرخة في عام 945هـ/ 1538م) – قد لعب دوراً مهماً في تنفيذ مشروع بناء السور

الضخم، وربما كان يدير عمليات البناء بنفسه.

تبين دراسة هذا السور أنه مبني من الحجارة الضخمة، وتعلوه شراشيف حجرية جميلة المنظر، ويتميز بكثرة الزخارف المنقوشة على الحجارة لنماذج نباتية وهندسية أكسبت السور جمالاً ـ وروعة لا ـ مثيل لها، وجعلته الأجمل والأكمل بين أسوار المدن التي شيدت في العالم كله خلال القرن 16م. وقد أنفقت عليه مداخيل 3 سنوات من الضرائب التي جبيت من مصر كلها، لما للقدس من أهمية دينية في نظر المسلمين، ولدى السلطان سليمان.

من المرجح أن يكون السبب الأساسي لإعادة بناء سور القدس هو أن كارلوس الخامس (ملك إسبانيا والنمسا والوصي على أوروبا الغربية) قد خطط لاستئناف الحملات الصليبية إلى الشرق. وكان مفهوماً أن (تحرير القدس والقبر المقدس – للمسيح – من الأسر الإسلامي) سيكون الشعار الرئيس للحملة الجديدة أيضاً. وتجدر الإشارة إلى أن الملك كارلوس الخامس نال – بين الألقاب التي أعطيت إليه – لقب (ملك القدس)، وقد ظهر هذا اللقب على أوراق اعتماد السفير الإسباني في بلاط السلطان سليمان، الذي احتج بدوره على ذلك، والذي تعززت لديه القناعة بضرورة تحصين القدس أمام أي غزو محتمل ببناء سور جديد للمدينة. واستناداً إلى هذا التفسير، من المستبعد أن يكون بناء السور قد جاء – كما يذكر بعض المؤرخين – كمحاولة لكبح جماح هجمات البدو على القدس، خصوصاً بفعل وجود فصيلة من الفرسان العثمانيين في المدينة، لمواجهة أي هجمات كهذه.

يبلغ طول محيط هذا السور نحو 4 كم، ومتوسط ارتفاعه 12م، فيه 12 باباً، منها 7 أبواب مفتوحة حالياً (هي بأسمائها الراهنة المتداولة: من الجنوب باب المغاربة وباب النبي داود. من الغرب باب الخليل والباب الجديد. من الشمال باب العمود وباب الساهرة. من الشرق باب الأسباط). والأبواب الخمسة المتبقية مغلقة (هي: في الشرق الباب الذهبي وباب الجنائز، وفي الجنوب المنفرد والمزدوج والثلاثي)، وهي ذاتها أبواب للحرم القدسي.

خلال العهد العثماني، طرأت عمليات ترميم وتجديد على غالبية أبواب القدس. وكأمثلة:

ـ في زمن السلطان سليمان القانوني، جدد باب الساهرة (944هـ/1537م)، وباب الخليل (945هـ/ 1538م)، ونقش على حجر في واجهته (لا ـ إله إلا ـ الله إبراهيم خليله). كما جدد باب المغاربة وباب النبي داود (947هـ/1540م). وتظهر على الثاني منهما ميزات عمارة عسكرية (فهو ضخم، مرتفع، وله برج حجري للمراقبة والحماية، ومزاغل لرمي السهام...). وبالمثل، جدد باب العمود فوق أنقاض باب يرجّح أنه من العهد الصليبي. ورمم باب الأسباط (945هـ/ 1538م) وتظهر عنده ميزات حربية إسلامية عثمانية.

ـ استمرت أعمال ترميم سور القدس وأبوابها طوال العهد العثماني، وفي زمن السلطان عبد الحميد الثاني، فتح الباب الجديد (في الجزء الشمالي الغربي لسور القدس) (1305هـ/

1887م)، حتى يسهل الدخول إلى القدس والخروج منها عبر هذا المكان.

ثالثاً: أعمال الترميم والتجديد في الحرم القدسي الشريف:

تابع العثمانيون الاهتمام الذي أولاه من سبقهم من المسلمين للحرم القدسي، ومما قاموا به:

1- ترميم جدران الحرم القدسي وأبوابه وفتح باب ستنا مريم في زمن السلطان سليمان القانوني.

2- استأثرت قبة الصخرة بأول أعمال البناء الضخمة التي أنجزها السلطان سليمان القانوني، لما للصخرة من مكانة روحية. وبحسب نقش أزيل من موضعه في وقت لاحق فقد تم الفراغ في عام (935هـ/ 1528م) من تجديد نوافذ هذا المبنى المثمن الشكل والبالغ عددها 36 نافذة والمزخرفة بقطع زجاجية. وبما أن التجديد أمر به السلطان سليمان فلا يمكن أن يكون اقتصر على النوافذ. لهذا يمكن اعتبار ذلك العام تاريخاً للترميم الشامل للمبنى. وبتكليف من السلطان أنجز الترميم خلال السنوات العشر التالية. وزينت بعد ذلك الواجهات الخارجية بالقاشاني الملون على نمط الأبنية العظيمة في عواصم الدول. واشتمل ذلك التزيين على قطع فسيفساء متعددة الألوان وبلاط زجاجي ملون ذي حافات غير مدببة، واستخدمت فيه أيضاً رسومات على بلاط تعلوه طبقة زجاجية شفافة.

ويمكن ربط زخارف الفسيفساء تلك بنقش مكتوب يعود تاريخه إلى عام (952هـ/ 1545م) على الجهة العلوية من السقف خارج الباب الشمالي للمسجد والمرسوم تحت طبقة من الزجاج وعليه توقيع فنان فارسي يدعى عبد الله التبريزي، وهي توضح لنا المستوى الذي وصلت إليه زخرفة البلاط باهظة التكاليف. فبمساعدة أمهر مهندسي ذلك الوقت، تم تحقيق الهدف من زخارف الفسيفساء وهو إعادة البريق القديم إلى هذا المبنى. وهنا يتضح لنا السبب في حرص أوليا جلبي على ذكر الخطاط أحمد قرة حصاري (ت 963هـ/ 1556م) الذي زين بخطه الفسيفساء الخارجية، والذي عمل أيضاً في الجامع السليماني في استانبول، بل وحرص أيضاً على ذكر خوجا سنان كبير المعماريين العثمانيين ومهندس ذلك الجامع، وربط بينهما وبين التعميرات التي أمر بها السلطان في القدس.

وبناء على استخدام أنماط فنية مختلفة في تصميم البلاط يمكننا الافتراض أن إنتاج هذه الفسيفساء الرائعة لم يمر عبر مرحلة واحدة وإنما عبر العديد من مراحل الإنتاج. ومن الأدلة الصريحة على ذلك قبة السلسلة المنتصبة شرقي قبة الصخرة، حيث يوجد فوق المحراب نقش فسيفسائي مكون من سطرين ويبلغ طوله نحو 3 أمتار، وينص على أن قاشاني الفسيفساء جُدد بأمر من السلطان سليمان عام 969هـ/ 1562م. وتتكون بلاطات النقش من كتاب باللون الأبيض على أرضية بنية غامقة يعلوها زجاج شفاف، وهي تطابق من الناحية الفنية فسيفساء الباب الشمالي لقبة الصخرة. وعليه يمكننا القول أن تاريخ نقش

الترميم في قبة السلسلة قريب من تاريخ صنع الرسومات على البلاط تحت زجاج شفاف في قبة الصخرة المجاورة.

وعلى الأرجح فإن المرحلة الأخيرة من صناعة القاشاني أعقبت مراحل التطور التي مر بها بناء المسجد السليماني في استانبول (في الفترة 957–964هـ / 1550–1667م)، والتي استخدم فيها بلاط عليه رسومات متعددة الألوان للمرة الأولى. ومن المحتمل أن يكون المعمل نفسه الذي قام بصناعة فسيفساء تكية السلطان سليمان في دمشق قبل ذلك بقليل (في عام 967هـ/ 1560م) كلف بصناعة فسيفساء قبة الصخرة. وعلى ما يبدو فإن أعمال الترميم الجديدة في قبة الصخرة قد استكملت (عام 972هـ/ 1564م) بعد الفراغ من تغليف الأبواب الخشبية الشرقية والغربية بالبرونز بتكليف من السلطان سليمان.

ويمكن القول أن ترميم قبة الصخرة في زمن السلطان سليمان دفع أوليا جلبي إلى كتابة الملاحظة التالية: (ولما كان السلطان العثماني في هذا الزمان هو أكثر حكام العالم تشريفاً واحتراماً... فقد جعل من هذا الصرح جنة لا مثيل لها على الأرض... لأن السلطان وحده القادر على أن يكون مالكاً لبيت الله).

في سياق عمليات ترميم مبنى قبة الصخرة، تم إنشاء الباب الشمالي للمبنى (945هـ/ 1538م) وإعادة تبليط المسجد وترميم القبة (949هـ/ 1542م) في زمن السلطان سليمان القانوني. وقد رمم مجدداً (1270هـ/ 1854م) زمن السلطان عبد المجيد، وأعيد إنشاء قسم كبير من السقف الخشبي للبناء مثمن الأضلاع، ورمم الرصاص وبُلطت أرضية المسجد بالمرمر وركبت شبابيك زجاجية ملونة، وصفحت جدران المسجد بالمرمر في القسم السفلي منه (1291هـ/ 1874م) في زمن السلطان عبد العزيز. أما بلاط القسم العلوي فهو منذ زمن بنائه الأول. وفي زمن السلطان عبد الحميد الثاني، كتبت على القاشاني سورة يسين الموجودة حالياً على واجهات التثمينة الخارجية.

3- تم في العهد العثماني بناء أو تجديد عدد من قباب الحرم، ومن ذلك: تجديد القاشاني (969هـ/ 1516م) زمن السلطان سليمان القانوني في قبة السلسلة (التي أقيمت في العهود الإسلامية الأولى شرق مسجد قبة الصخرة). وتجديد قبة النبي (التي يعود تاريخها إلى الفترات الإسلامية المبكرة، في الموقع الذي قيل: إن الرسول -صلى الله عليه وسلم- صلى فيه بالأنبياء والملائكة). فأنشأ محمد بك صاحب لواء غزة والقدس محراباً مستطيل الشكل بين أعمدة، في زمن السلطان سليمان القانوني. ورممت القبة (1261هـ/ 1845م) في زمن السلطان عبد المجيد بن محمود الثاني. ويتكون مبناها من 8 أعمدة رخامية تعلوها 8 عقود مدببة تتلوها رقبة مثمنة تقوم عليها القبة. وأنشئت قبة الشيخ الخليلي (1112هـ/ 1700م) واستخدمت داراً للعبادة والتصوف واتخذها الشيخ الخليلي مقراً لقراءة الأوراد (الأدعية الصوفية) والاعتكاف فيها. ويضم مبناها غرفة مستطيلة الشكل، مدخلها في جدارها الجنوبي، وفي داخلها كهف أقيم فيه محراب. كما أنشئت قبة أو إيوان عشاق النبي (شمالي ساحة الحرم) (123هـ/1818م) في زمن السلطان محمود الثاني، وكانت ملتقى الصوفيين

والزهاد الذين عرفوا بعشاق النبي (صلى الله عليه وسلم). وقبة يوسف آغا (في الجهة الجنوبية الغربية لساحة الحرم) (1092هـ/1681م) في زمن والي القدس يوسف آغا خلال حكم السلطان العثماني محمود الرابع. ويستخدم مبناها حالياً مكتب استعلامات وبيع تذاكر لزوار الحرم القدسي. ويبين الطراز المعماري لكل من قبة الخضر وقبة الأرواح أنهما من العهد العثماني، ويرجح أنهما بنيتا في القرن (10هـ/16م)، وهما موقعان تذكاريان فقط، الأولى يضم مبناها 6 أعمدة رخامية فوقها 6 عقود حجرية تشكل القاعدة المسدسة للقبة، والثانية يضم مبناها 8 أعمدة رخامية عليها 8 عقود تشكل القاعدة المثمنة للقبة.

4- جرى خلال العهد العثماني ترميم المسجد الأقصى مرات عدة، فإضافة إلى ترميم قبة الصخرة أمر السلطان سليمان بترميم المسجد الرئيسي في الحرم/ المسجد الأقصى. ويشهد على ذلك نص مفقود كان يقع على أحدى نوافذه من الداخل ولكنه يحمل تاريخاً مغلوطاً (وهو عام 996هـ/1587م) يبين أن إتمام الترميم أنجز بعد أكثر من عشرين سنة على وفاة السلطان. ومن المرجح إن التاريخ الصحيح هو (عام 936هـ/1529م)، بحيث أن تجديد النوافذ الخارجية في قبة الصخرة تم في (عام 935هـ/1528م). وعلى ذلك يمكن القول إن النص الزجاجي الفني المذكور في المسجد الأقصى أعد مباشرة بعد إتمام أول أعمال الترميم التي أمر بها السلطان في الحرم.

أما آخر عمليات ترميم المسجد الأقصى خلال العهد العثماني، فقد كان منها: الترميم الواسع الذي تم بعد زيارة والي صيدا للمسجد (1232/ 1816م) لترميم الذي أجري في زمن السلطان عبد المجيد (1838–1860م) الذي انفق على أعمال ترميم الحرم وزخرفته 20 ألف ليرة عثمانية، والترميم الذي جرى في زمن السلطان عبد الحميد الثاني (1876–1908م) وأنفق عليه 30 ألفاً، عدا عن الأثاث الذي بلغ ثمنه نحو 10 آلاف ليرة، وجرى آنذاك فرش منبر المسجد بالسجاد الفارسي وأحضرت له سجاجيد أخرى للصلاة، وغير ذلك.

5- تجديد (منبر برهان الدين) (الذي استخدم للخطابة والدعاء في الأعياد والمناسبات الإسلامية وصلاة الاستسقاء) (1259هـ/1843م) بأمر الأمير محمد رشيد في زمن السلطان عبد المجيد بن محمود الثاني، حسبما هو مذكور في النقش التذكاري الموجود عليه. وعرف في القرن (8 هـ/14م) باسم (قبة الميزان) (...).

6- أنشئت خلال العهد العثماني مصاطب عدة في الحرم القدسي للصلاة والتدريس، وهي أمكنة مرتفعة قليلاً بنيت من الحجارة وبُلّطت سطوحها، ولبعضها محراب باتجاه القبلة، أبرزها: مسطبة سليمان (943هـ/1536م)، مسطبة على باشا (1047هـ/1637م)، مسطبة الطين (1174هـ/ 1760م).

7- إنشاء وتجديد سبل المياه، وأبرز ما جرى في هذا الشأن، أنه بعد ترميم الحرم القدسي وتجديد القلعة, أمر السلطان سليمان (عام 943هـ/ 1536م) بإنجاز مشروع معماري مهم آخر، يهدف إلى تأمين وصول المياه من بركة السلطان الواقعة جنوب غرب المدينة إلى

الأسبلة الخمسة التي أنشئت في الحرم القدسي وحوله. وتزودنا النقوش المنحوتة على تلك الأسبلة بمعلومات تفصيلية عن المراحل الزمنية لتلك الأعمال. وقد تم تجديد شبكة المياه وإنشاء الأسبلة في المدينة وفي داخل الحرم خلال وقت قصير مذهل لا يتجاوز الشهرين. وكما قال أوليا جلبي فقد كان الهدف الرئيس من هذه المنشآت تزويد الحرم القدسي بالمياه. ولكن الأسبلة التي بنيت عند تقاطعات الطرق المهمة داخل المدينة تشير إلى تطوير واعٍ للبنية التحتية للمدينة على يد السلطان سليمان. وهو ما يعكس الحرص على خدمة المواطنين والزوار على حد سواء. وهذه الأسبلة هي:

- سبيل قاسم باشا، قرب باب السلسلة، ويسمى أيضاً سبيل باب المحكمة، أُنشئ (932هـ/ 1526م) في زمن قاسم باشا والي القدس خلال حكم السلطان العثماني سليمان القانوني. ويتكون من بناء حجري مثمن الأضلاع عليه قبة، تغطي جوانبه مظلة خشبية واقية دائرية الشكل، وشماله بركة مربعة الشكل تتوسطها نافورة تسمى بركة النارنج تعود إلى العهد المملوكي.

- سبيل السلطان سليمان، في الجهة الشمالية لساحة الحرم قرب باب المجاهدين (العتم). أُنشئ (923هـ/ 1517م) في زمن السلطان سليمان القانوني، ويحمل اسمه، وعرف أيضاً باسم سبيل باب العتم.

- سبيل البديري، في الجهة الغربية لساحة الحرم شرق باب الناظر. أُنشئ (1135هـ/1740م) بإشراف مصطفى آغا قائمقام القدس في زمن السلطان محمود الأول. ويقوم مبناه على قاعدة مربعة الشكل. يرتقى إليه بدرجتين. له ثلاث فتحات مقنطرة، وفوقه قبة.

- كما أنشئت في العهد العثماني أسبلة أخرى بسيطة التكوين، منها: سبيل باب حطة (في الجهة الشمالية لساحة الحرم على يسار الداخل من باب حطة) وسبيل باب المغاربة (في الجهة الجنوبية الغربية لساحة الحرم مقابل باب المغاربة). وجرى في زمن السلطان عبد الحميد بن عبد المجيد، ترميم سبيل مياه قايتباي (في الجهة الغربية لساحة الحرم) (1300هـ/883م). ويعتبر هذا السبيل النموذج الوحيد والفريد من نوعه في المنطقة، ويعد من أهم أسبلة القدس وفلسطين وبلاد الشام.

****

*) باحث من دمشق.